قصة / بشري..

كان يسير وحيدًا في غابة كثيفة بعد أن قرر اعتزال عالم البشر، لقد آذوه حتى ملَّ الحياة، ليس معه زادًا لرحلته المجهولة، إلا علبة تحوي لفافات تبغ وقداحة، كان كالكثيرين يتوهم أن التدخين يريح أعصابه، أخذه التعب فقرر الاستراحة تحت شجرة، وغط في نومٍ عميقٍ مستظلًا بأفرع الشجرة وأوراقها، حين أفاق بعد فترة طويلة مريحة كان نشيطًا ومرتاح البال وخالٍ من الهموم، لقد وجد سعادته في العزلة، إلّا أن شيئًا يُنغص عليه هناءه، أحس بأنه رغم سعادته إنما ينقصه شيءٌ ما، ربما وجود أحدهم بجانبه، أو حتى كائنًا من غير البشر، وبعد فترة لم تلمح عيناه فيها أي حركة، رأى سِربًا من العصافير يحلق في الفضاء، فتمنى لو أنه عصفور، فهذه المخلوقات تحلق بحرية في مجموعات منتظمة، إنهم عائلة واحدة، و رغم كثرة عددهم؛ إلا أنهم يَحيَون بمحبة، ويحرص كل منهم على حياة الآخر قبل حياته، ولا يعرفون القتل والظلم والحقد.

كان في ذيل السِربِ عصفورٌ رمادي اللون، صغير وضعيف ويبدو أنه كان يتعلم التحليق حديثًا، لقد تعب هذا العصفور وهوى إلى الأرض وهو يصارع الموت ويقاوم السقوط بكل طاقته، إنما جناحاه لم يساعداه، فلا يزالان ضعيفان، حملق فيه البشري وانتابه شعورًا بالعطف عليه - رغم أنه كان قد فقد الإحساس بالحياة- إلّا أنه أشفق على العصفور، كان شعورًا بالشفقة ممزوجًا بمكرٍ وسعادة، سوف يتخذ هذا المخلوق الضعيف أنيسًا له، كان يريد من أحد أن يلملمه ويجمع شتات نفسه،

راقَبَه جيدًا؛ فشاهده يسقط على أحد أفرع شجرة قريبة فوثب لنجدته -في واقع الأمر وثب لنجدة ذاته الشريدة الوحيدة- أمسك بالعصفور الضعيف الذي لم يقوَ على التحرك والتملص من يديه، وكان جريحًا بفعل السقوط، أخذه تحت الشجرة وبدأ في تهدئته فقد كان العصفور ينتفض خوفًا، استمر في تهدئته، تارة يملس على ريشه الصغير، وتارة أخرى يحركه في الهواء كأنه يطّيره وهو ممسك به، بعدما شعر بأنه اطمأن له؛ وضعه على الأرض برفق وتركه، فلم يحاول العصفور التحليق والهرب، بل ظل هادئًا ينظر في عيون البشري، الذي التقط بعضًا من أوراق الشجر وغطاه بها حمايةً من حرارة الشمس، ووضعه عند الشجرة وراح يبحث عن شيئ ليضمد به جرحه، عاد بعد مدة ووجده في مكانه ملتزمًا الهدوء، تحمس كأنه يريد الطيران عندما رآه وصار يزقزق، ضمد له جرحه وغلبه النعاس فنام، أفاق فوجده فوق صدره نائمًا هو الآخر وقد تحسنت حالته، ظلا سويًا برفقة بعضهما لمدة يوم، وأثناء الليل كان البشري قد جاع ولم يجد شيئاً أمامه إلا العصفور، راح يجوب الغابة بحثًا عن شيئ فلم يجد، عاد لعصفوره وبدأ ينظر إليه نظرة مفترس، أمسكه وراح يتحسسه كمشترٍ يتحسس ماعز ليضحي بها، ارتاب العصفور وشعر بأن حياته على وشك الفناء، همَّ البشري لإشباع جوعه ونسي أن هذه الضحية كانت سببًا في أنسه وسعادته، وأنه قد سلَّم نفسه له وسكن في روحه المنعزلة الضائعة.

عصفورٌ صغيرٌ أعاد إليه بعضًا من وجوده وكينونته، لم يتركه من يده وهو يبحث عن قشٍ ليشويه، جمع قشًا كثيرًا لكي يرمي العصفور بداخله ويشعل النار كي لا تأخذه به شفقة، كان جائعًا؛ إنما للقتل والخيانة، لغرائز البشر التي هجرهم بسببها، جاء بحجرٍ صخري مسنن وأخرج

قداحته فتأكد العصفور بأنها النهاية، عندها راح يتحرك ويلامس رفيقه من كل مكان في جسده، ويهفهف على وجهه بجناحيه ليخفف عنه حرارة الجو، ويقف على رأسه ويغلغل رجليه داخل خصلات شعره بنعومة، كان يطير ويبعد عنه مسافة متر ثم يعود إليه، مع إمكانية تحليقه إنما لم يهرب، كرر هذه الفعلة عدة مرات كأنه يقول له انظر، بإمكاني الهروب لكنني أفضل البقاء معك، وأن ما يزعجني ليس الموت، إنما فراقك، ولست حزينًا لأنني سأُقتل.. بل حزني لأنك ستكون قاتلي، ما يحز في نفسي أن من أخشى فراقه هو من أعد للفراق، بل إنه سيقتلني لإشباع ملذاته، في الأخير عزم أمره واستسلم لمصيره المحتوم، سكن مطأطئ الرأس بجوار القش منتظرًا نهايته، مر سِرب طيور في السماء فقرر العصفور التخلي عن رفيقه فراح يحرك جناحيه، هنا رمى البشري بالقداحة وفرق جمع القش وأزاح الحجر بعيدًا، هدأ العصفور فقد فهم أن رفيقه لن يؤذيه.

لم يكن حريصًا ذلك العصفور، ولم يعاشر البشر طويلًا ليعلم طباعهم، اختفى السِّرب المحلق ورضي العصفور عن قناعة بحياته الجديدة في صحبة ابن آدم، أمسك البشري به وأحكم قبضته عليه وجمع قشه وجاء بحجرة، والتقط قداحته.. وبكل قوة وضع رأسه على جذع شجرة وهوى بالحجر الصخري المسنن على رقبته؛ فطير رأسه ثم رماه في كومة القش وأضرم فيه النار، أكله بشراهه وعاد وحيدًا لكنه شبع، بعد نصف ليلة ونهار وعند ظهر اليوم الثاني جاع ثانيةً، شعر بالجوع والوحدة وبالأشياء الكثيرة التي تنقصه من متع الحياة ورفاهيتها، لكنه لم يشعر بندم أو خيانة للعصفور، لم يشعر بنذالته معه، كل ما دار في رأسه تساؤل: هل في قلبه رحمة! .. ربما أحزنه ذلك قليلًا، شعوره بانعدام

الرحمة في قلبه، وهمِّه بتقمص أدوار الخيانة والشر قد أحزناه وأسعداه في آن واحد، فالآن فقط بمقدوره العودة للبشر، فقد صار بارعًا، خاض تجربة أظهرت مواهبه التي ستمكنه من الحياة بينهم، لم يعد بحاجة للعزلة فلقد صار يتمتع بالأشياء التي غادرهم بسببها، قال لنفسه الآن تساوينا وعليّ العودة.

لم يعد يحتاج لأحدٍ أن يلملمه، شعر بأنه يمتلك أحدث أسلحة القتال، فقرر استخدامها للدفاع عن حياته التي كان على وشك إنهائها بسبب ضعفه أمام أبناء جنسه، عاد للمدينة وحشًا قد قرر افتراس كل من يقف في طريق سعادته في صورة إنسان، كان مبتسمًا ومتفائلًا مع ذلك ونسي فعلته مع رفيق عزلته.

تمت

بقلم / محمد كمال